الدروز والرئيس الأسد: حلفاء استراتيجيون

بواسطة فابريس بالونش (/ar/experts/fabrys-balwnsh-0)

أكتوبر
متوفر أيضًا باللغات:
English (/policy-analysis/druze-and-assad-strategic-bedfellows)

عن المؤلفين

فابريس بالونش (/ar/experts/fabrys-balwnsh-0)

فابريس بالونش هو أستاذ مشارك ومدير الأبحاث في "جامعة ليون 2" وزميل زائر في معهد واشنطن

yria-/)
Jabal-
Druze-
map-
06.jpg

تحليل موجز

على الرغم من أن الدروز يشكلون أقلية صغيرة نسبياً في سوريا وسعوا إلى تجنب التدخل بصورة أعمق في الحرب الدائرة في البلاد إلا أن مكانتهم الاستراتيجية في المنطقة الجنوبية الجبلية من "جبل الدروز" تمنحهم بالضرورة النفوذ للتأثير على الجهات الطامحة إلى السيطرة على مستقبل سوريا وحتى وقت قريب تسنّت للمعارضة العربية السنية فرص متعدّدة للاستفادة من هذا النفوذ نظراً لأن ولاء الدروز لنظام الرئيس الأسد كان محدوداً في أحسن الأحوال غير أن الأسد نجح في استغلال مخاوف هذه الطائفة وإقناعها بالتعاون معه بفاعلية أكبر للدفاع عن مركز دمشق مستفيداً بالدرجة الكبرى من سلسلة أخطاءٍ ارتكبها المتمردون

المكانة الاستراتيجية للدروز

اعتباراً من 2010 الذي هو العام الأخير الذي توفرت فيه أرقام موثوقة عن التعداد السكاني في البلاد كان يعيش في سوريا حوالي 700,000 مواطن درزي أي ما يعادل 3 في المائة من إجمالي عدد السكان وكانت غالبيتهم تعيش في محافظة السويداء التي بلغ عدد سكانها [آنذاك] 375,000 نسمة - 90 في المائة منهم دروز و 7 في المائة مسيحيون و 3 في المائة من السنة كما كان هناك 250,000 درزي آخر يقيمون في دمشق وضواحيها (جرمانا صحنايا وجديدة عرطوز) بالإضافة إلى 30,000 درزي على الجانب الشرقي من "جبل حرمون" و 25,000 في أربعة عشر قرى في "جبل السماق" شمال شرق إدلب وقد غيّرت الحرب التوزيع السكاني في الجنوب بشكل كبير حيث شُرِد 100,000 شخص من السنة داخل البلاد وهاجروا بعد ذلك إلى "جبل الدروز". وقد فرَّ الكثير من دروز دمشق إلى جنوب البلاد أيضاً مباشرة بعد أن أصبحت منطقة العاصمة غير آمنة

(http://www.washingtoninstitute.org/uploads/Maps/Syria Conflict/Syria-Jabal-Druze-map-HiRes.pdf)

(http://www.washingtoninstitute.org/uploads/Maps/Syria Conflict/Syria-Jabal-Druze-map-HiRes.pdf)
(http://www.washingtoninstitute.org/uploads/Maps/Syria Conflict/Syria-Jabal-Druze-map-HiRes.pdf)

انقر على الخريطة للحصول على نسخة عالية الدقة

تضطلع ضواحي دمشق الدرزية بدور رئيسي في الدفاع عن المدينة **(http://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/damascus-control-emboldens-assad-nationally)** كونها تحيط بالبلدات الخاضعة [لسيطرة] المتمردين على غرار بلدة داريا وتشكل حاجزاً فاصلاً يقطع الاتصال بين المناطق السنية في الغوطة الشرقية والغوطة الغربية. وعلى نحو مماثل تشكل القرى الدرزية في جبل حرمون معقلاً للموالين للنظام عند الأطراف الجنوبية الشرقية للعاصمة وتسمح للجيش السوري بالبقاء على اتصال مع مرتفعات الجولان. كما تمنع ارتباط المتمردين في محافظة درعا مع أولئك في القلمون شمالي شرقي دمشق. وفي الوقت نفسه يشكل "جبل الدروز" منطقة عازلة في جنوب العاصمة ويحافظ على الرابط البري الرمزي بين سوريا والأردن. ويأمل النظام بأن يمنع هذا العازل دون دخول المزيد من المتمردين إلى البلاد من تلك الجهة. بالإضافة إلى ذلك تسهم القواعد الجوية العسكرية في المنطقة في الدفاع عن مواقع الجيش السوري في محافظة درعا. وعلى نطاق أوسع يشكل المعقل الجبلي تهديداً مستمراً لقوات المتمردين في تلك المحافظة.

[وبما أن] الجيش السوري لا يشارك بقوة في الدفاع عن "جبل الدروز" فإن الجزء الأكبر من هذه المهمة يقع على عاتق حوالى 10,000 عنصر من الميليشيات المحلية فهؤلاء يعرفون المنطقة جيداً ولديهم حافز أكبر للدفاع عن وطنهم من دفاعهم عن النظام في حلب أو حمص. وفي الواقع إن الاتفاق غير الرسمي الذي توصل إليه الأسد مع الزعماء الروحيين للطائفة الدرزية أو "شيوخ العقل" نصّ على إبقاء المجندين الدروز في محافظة السويداء مع الإشارة إلى أن الأسد يعتمد اعتماداً كبيراً على هؤلاء الزعماء للتحكم بالدروز.

هجمات المتمردين على الدروز

ظهر التوتر مع المعارضة السنية في درعا في وقت مبكر من عام 2011 حينما بدأ بعض المتظاهرين والمتمردين المسلحين بإطلاق شعارات تربط الدروز بالأسد وتصفهم بالزنادقة (بتحريضٍ من الزعماء الدينيين السنة المتطرفين في غالب الأحيان). وقد تم أخذ بعض القرويين الدروز كرهائن وأُفرج عن بعضهم لقاء فدية أو تم قتلهم وفي كانون الأول/ديسمبر 2012 على سبيل المثال قامت «جبهة النصرة» [التي غيّرت اسمها لـ «جبهة فتح الشام» بعد فك ارتباطها بـ تنظيم «القاعدة» كما ادّعت] باختطاف أحد كبار أعيان الدروز المدعو جمال عز الدين مع ستة عشر من رفاقه. وفي ذلك الوقت كانت تربطه علاقات جيدة مع كل من مسؤولي النظام والمعارضة ولكنه قُتل بعد بضعة أشهر.

أما في المناطق الأخرى فتعرضت ضاحية جرمانا في دمشق إلى هجمات عنيفة منذ ربيع عام 2012. وفي خريف ذلك العام شنّت فصائل المتمردين بقيادة «جبهة النصرة» هجوماً على "جبل الدروز". ورداً على ذلك تخلى الدروز عن موقفهم الحيادي السابق وشكلوا ميليشيا محلية بمساعدة الجيش السوري.

ومنذ ذلك الحين لم تنفك «جبهة النصرة» عن القيام بهجمات منتظمة على "جبل الدروز" من بينها معركة ضروس وقعت في الربع الشمالي الغربي في الفترة بين 17 و20 آب/أغسطس 2014 وبرزت فيها ميليشيا "الشيخ وحيد البلعوس" التي كانت موالية للنظام في ذلك الوقت بفضل الجهود التي بذلتها في تلك المواجهة. وفي حزيران/يونيو 2015 وبالتزامن مع هجوم «جيش الفتح» على شمال غرب سوريا حاول متمردون ينتمون إلى «الجبهة الجنوبية» السيطرة على مطار الثعلة العسكري الذي يشكل ركيزة أساسية في الدفاع عن السويداء إلا أن الجيش السوري والميليشيات الدرزية وقفت لهم بالمرصاد بينما قاتل بعض هذه الميليشيات بضراوة لحماية عاصمة المحافظة. إن هذا التطور ملفت بشكل خاص إذا تَذكر المرء أن دروز السويداء ثاروا ضد النظام في تشرين الثاني/نوفمبر عام 2000 مما أدى إلى [قيام الجيش السوري] بشن حملة عسكرية ضدهم خلّفت عشرات القتلى ومئات الجرحى.

نبذ المتمردين

حين بدأت الانتفاضة السورية تتنامى في ربيع عام 2011 كان الوضع في "جبل الدروز" متأججاً حيث استمد السكان إلهامهم من ذكرى الزعيم الدرزي سلطان الأطرش الذي ثار ضد الاحتلال الفرنسي في عام 1925. فانطلقت الاحتجاجات في السويداء إلا أن الأجندة السياسية المختلفة للمعارضة السنية (الصادرة عن "المجلس الوطني السوري" ومن ثم "الائتلاف الوطني السوري") لم ترقَ إلى توقعات الدروز. ولم يأتِ أحدٌ على ذكر العلمانية التي يجد فيها الدروز الضمانة الوحيدة لأمنهم بل أن

مجلس المعارضة تبنى مفهوم "الدولة المدنية" الذي يعني في المصطلحات الإسلامية دولة إسلامية خاضعة لأحكام الشريعة. ولا يزال انعدام الثقة تجاه المتمردين مرتفعاً حتى اليوم بسبب الحملات الدعائية التي يقوم بها النظام والتي غالباً ما يتم فيها الاستشهاد بالفتاوى الشهيرة للعلاّمة السني ابن تيمية التي تدعو إلى إبادة الدروز.

ولكن عندما بدأ التمرد بقي بعض الدروز متأملاً بالانضمام إلى القتال. وفي آب/أغسطس 2011 انشق الملازم أول الدرزي خلدون زين الدين عن الجيش السوري وشكل تنظيم مسلح معادٍ للأسد أطلق عليه اسم "كتيبة سلطان باشا الأطرش". وسرعان ما انضمت هذه الجماعة إلى تنظيمات المتمردين السنة في درعا. وشارك التنظيم في عدة هجمات ضد أهداف تابعة للنظام في "جبل الدروز" ولكنه فشل في كسب تأييد كبير من السكان المحليين. وفي عام 2013 اعتقلت «جبهة النصرة» أعضاء الكتيبة وحكمت عليهم بالإعدام ولكن تم في النهاية إطلاق سراحهم بفضل تدخل جماعات متمردة أخرى ولكنهم شعروا بأنهم مضطرين إلى الفرار إلى الأردن. وقد خلّفت هذه المرحلة جروحاً عميقة وأقنعت الكثير من الدروز بأنهم ليسوا موضع ترحيب في الثورة. وقد اعتبر المتمردون عموماً أن أي مشاركة درزية تفتقر إلى الصدق وفي بعض الحالات كان اعتناق المذهب الإسلامي السني السبيل الوحيد الذي أنقذ الدروز المحليين من الموت. وفي عام 2015 أرغمت «جبهة النصرة» سكان "جبل السماق" على تدمير مقاماتهم الدينية واعتناق المذهب السني.

مغريات الانشقاق

في الوقت نفسه لا يزال الحل المتوفر أمام الدروز يربط مصيرهم كلياً بمصير الأسد حلاً غير مرضٍ لأن سقوط الأسد سيترك الدروز في مهب الريح. وتمثل إحدى الحلول البديلة التي تم النظر فيها في الماضي في إقامة منطقة مستقلة في "جبل الدروز" مع حدود مفتوحة مع الأردن تحت حماية دولية. وبدأت إمكانية تحقيق هذا الخيار تبدو أكثر تيسّراً حين بدا الجيش السوري على وشك الانهيار في ربيع عام 2015.

لقد كان "الشيخ البلعوس" أحد الدروز الأوائل الذين شكّلوا ميليشيات موالية للنظام وبحلول عام 2014 نجح في تمييز نفسه في اشتباكات متعددة على غرار "معركة داما". وقد طلب من الأسد تزويد ميليشيات "جبل الدروز" بأسلحة ثقيلة للدفاع بفعالية أكبر عن المنطقة ولكنه دخل في الوقت نفسه في النقاش السياسي ليعبّر عن مخاوف أبناء طائفته من خلال انتقاد غلاء المعيشة والفساد المستشري وتجنيد الرجال الدروز للقتال على الخطوط الأمامية خارج "جبل الدروز". وبحلول حزيران/يونيو 2015 ازداد عدد أفراد عناصر الميليشيا التابعة له إلى حوالي1,000 مقاتل وكان يتلقى التمويل اللازم لشراء الأسلحة من جهات خارجية بما في ذلك من الدروز الإسرائيليين القلقين على مصير إخوانهم في سوريا. ولكن في الخامس من أيلول/سبتمبر من ذلك العام اغتيل "الشيخ البلعوس" في ظروف غامضة وتم حل ميليشايته.

ليس هناك شك في أن نظام الأسد مسؤول عن مقتل "البلعوس" والسبب المرجح هو أنه أصبح طموحاً جداً في انفصال "جبل الدروز" عن الدولة. وفي حزيران/يونيو 2015 على سبيل المثال وقف "البلعوس" وكتيبته على الحياد عندما حاول المتمردون بقيادة «جبهة النصرة» احتلال مطار الثعلة وقد حثّ الدروز على الاستيلاء على مواقع الجيش ومباني الحكومة عوضاً عن القتال لصدّ الهجوم ولكنهم لم يفلحوا في ذلك. لعله ظنّ في ذلك الوقت أن الجيش كان يهمّ بالخروج من "جبل الدروز" نظراً للهجمات الناجحة التي نفّذها المتمردون في محافظة إدلب وفي محيط درعا (على سبيل المثال سقطت البلدة الجنوبية الرئيسية "بُصرى الشام" في آذار/مارس من ذلك العام). ولعله كان قد شعر أيضاً أن سقوط الأسد بات وشيكاً ربما من خلال السماح لـ "البلعوس" بأن يصبح زعيماً على منطقة درزية آمنة. ولكن في كافة الأحوال أدّى مصرعه والتدخل الروسي الذي أعقبه بفترة وجيزة إلى قلب موازين القوى بالكامل على الأرض ولذلك من المستبعد أن يغامر الدروز بتنفيذ المزيد من المحاولات الانفصالية في أي وقت قريب.

الخاتمة

كما تبدو الأمور سوف يكون من الصعب فصل "جبل الدروز" عن نظام الأسد بقوة الإقناع وحدها. ولا يمكن كسب ولاء الدروز ما لم تنقطع صلتهم عن دمشق وحتى في هذه الحالة سيحتاجون إلى ضمانات ملموسة فعلية بأن القوى الدولية ستحميهم من التنظيمات الجهادية مثل «جبهة النصرة» وتنظيم «الدولة الإسلامية». [وفي الواقع] لا يريد أهالي "جبل الدروز" أن يلقوا المصير نفسه الذي لقيه إخوانهم في الدين في "جبل السماق". ومن هذا المنطلق إذا كانت واشنطن وحلفاؤها يريدون لهذه الأقلية الاستراتيجية أن تلعب أي دور في الإطاحة بالنظام أو في إنهاء الحرب بشروط ميسّرة فلا بد لهم من طمأنة الدروز المحليين بشكل واضح بأنّ لديهم مستقبل آمن في في سوريا من دون رعاية الأسد.

فابريس بالونش هو أستاذ مشارك ومدير الأبحاث في "جامعة ليون 2" وزميل زائر في معهد واشنطن. ❖

موصى به

BRIEF ANALYSIS

Unpacking the UAE F-35 Negotiations

/ /

◆

Grant Rumley

(/policy-analysis/unpacking-uae-f-35-negotiations)

ARTICLES & TESTIMONY

How to Make Russia Pay in Ukraine: Study Syria

/ /

◆

Anna Borshchevskaya

(/policy-analysis/how-make-russia-pay-ukraine-study-syria)

تحليل موجز

مواجهة أزمة الغذاء في سوريا

فبراير

◆

عشتار الشامي

(ar/policy-analysis/mwajht-azmt-alghdha-fy-swrya/)

TOPICS

السياسة العربية والإسلامية (**ar/policy-analysis/alsyast-alrbyt-walaslamyt/**)

الشؤون العسكرية والأمنية (**ar/policy-analysis/alshwwn-alskryt-walamnyt/**)

المناطق والبلدان

سوريا (**ar/policy-analysis/swrya/**)